

نظرية الجمال في النحو العربي مفهوم ومعايير

د. محمد خالد الرهاوي





نظرية الجمال في النحو العربي مفهوم ومعايير

محمد خالد الرهاوي

U _____ u

المقدمة:

في ظل الفوضى الأدبية والنقدية واللغوية الحديثة التي يعيشها عالمنا العربي نتيجة التقليد الأعمى لكل ما هو آت من الغرب بزعم الرغبة في اللحاق به لإظهار الأمة بوجه حضاري غربي أو قريب منه، لا تكاد محاولة أو مقدمة تظهر في بلاد الغرب حتى تسمع لها ضجة وعويلا عند المقلدين العرب الذين يصبون كل جهدهم لتحقيق أقصى أملهم في تمييز مزعوم لا يتجاوز محاولة فهم تلك المحاولة أو المقدمة لتقديمها للعالم العربي دون تعديل عليها أو إضافة = على أنها مسلمة يقينية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، مدّعين - وهي ليست كذلك - أنها تسهم في بناء ثقافتنا وحضارتنا، وإذا كنا نلتمس العذر لهؤلاء؛ لأنهم قد تُقّفوا بثقافة الغرب، وتبنوا أفكاره ونظرتَه إلى الحياة والوجود ولو دخل حجر ضبُّ خرب، فإن ما يثير الاستغراب والعجب أن بعض دارسي التراث ركبوا مركبة من طراز لم تعرفه العربية حينما جهدوا يبحثون في هذا التراث عن فكرة أو مقولة أو رأي يتعلق إن قليلا

A 285



محمد خالد الرهاوي

U

وإن كثيراً ببعض ما جاءت به تلك المحاولات والمقدمات الغربية، فصرنا نسمع مثلاً النظرية التحويلية والتوليدية في النحو العربي، أو القواعد التوليدية والتحويلية في النحو العربي أو ما إلى ذلك، وهذا بلا ريب يجعل من تراثنا العربي تابعاً لتلك المحاولات من حيث دروا أو من حيث لم يدروا، ويجعل أعمال هؤلاء الدارسين سيراً بعكس السير، إذ لا تعدو أن تكون امتداداً طبيعياً لها مع اختلاف في الاتجاه، فدراساتهم امتداداً لها باتجاه الماضي لا باتجاه المستقبل.

في ظل هذا كله لم يكن ثمة بدء من البحث عن بديل أصيل ينبع من ثقافتنا، ويعبر عن هويتنا، ولا ينفصل عن تطورات العلوم في العالم اليوم، ويبين لهؤلاء أن عملهم لا يعدو أن يكون مسخاً لأمتنا ونتاجها، إذ لا ينبغي أن نجعل للحاق بالغرب هدفنا الأسمى الذي نسعى إليه؛ لأن ذلك سيجعلنا أسرى لهم من حيث ندري أو من حيث لا ندري، بل لا بد من أن نعتد على أنفسنا في إيجاد المنهج أو النظريات النابعة من طبيعة حضارتنا ولغتنا والمعبرة عنا، فالنحو العربي مثلاً منهج في التفكير العربي وفي التذوق والجمال، ولا يمكن لأحد كشف أسرار تركيب ما أو الوصول إلى جمال فيه أو في غيره من دونه. وفهمه لن يكون دقيقاً ما لم تفهم طبيعة النظام المعرفي والجمالي في الحضارة العربية الإسلامية التي أنتجته، فهو قد صدر عنها صدور الجزء عن الكل، ولا يمكن فهم الجزء دون فهم الكل⁽¹⁾، لذا فالجمال العربي الذي سأتكلم عليه ينبثق من ذلك. وما من شك أن كل علم أو نتاج فكري معين له ضوابط ومعايير ظاهرة أو خفية يستند إليها في إرساء أحكامه وإنضاجها، ومنها الفكر النحوي العربي الذي يدل نضجه على نضج الفكر الذي أنتجه وعلى قدرته الباهرة التي مكنت من إيصاله إلى درجة عالية من الدقة والإحكام.

إن مفهوم الجمال مفهوم نسبي يختلف من شخص إلى آخر، والحكم على الشيء بأنه جميل أو قبيح يعود إلى ذوق الإنسان، والذوق يحكمه تكوين الإنسان وثقافته.

ولا تختلف الحال بالنسبة للنحاة، فإنهم بتكوينهم الثقافي وتذوقهم لكلام العرب وأساليبه لم يروا الجمال إلا فيما وافق كلام العرب، وكلما خالفه أو ابتعد منه ازداد قبحاً، فالجمال ما

(1) نظرية النقد العربي لأحمد صوفي، المقدمة ص ب.



U _____ نظرية الجمال في النحو العربي مفهوم ومعايير

وافق النفس ومائلها وتكوينها، ولذلك كان سيبيويه يقول: وهذا قبيحٌ أو هو قبيحٌ أو ومما يقبح... أو وهذا وجه حسن أو وهو حسن أو وهو عربي جيد⁽¹⁾. وكان الفراء يقول: «ولست أشتهي ذلك، ولا أشتهي الرفع، والوجه الأول أحب إليّ، وهو أحبها إليّ، والأول أعجب إليّ، وهو مما أكره»⁽²⁾. يقول زكي نجيب محمود: «أعتقد أنه لا بد أن تكون هناك علاقة وثيقة بين ما يبعث فينا النشوة الجمالية وبين التكوين الفسيولوجي والنفسي للإنسان المشاهد»⁽³⁾. ويقول مسكويه: «إن من شأن النفس إذا رأت صورة حسنة متناسبة الأعضاء في الهيئات والمقادير والألوان وسائر الأحوال مقبولةً عندها، موافقةً لما أعطتها الطبيعة اشتاقت إلى الاتحاد بها، فنزعتها من المادة، واستثبتتها في ذاتها، وصارت إياها، كما تفعل في المعقولات»⁽⁴⁾.

لقد ارتبط مفهوم الجمال في الثقافة العربية الإسلامية بمفهوم الكمال، فالكمال أساس الجمال، ولا يكون الشيء جميلاً ما لم يكن كاملاً⁽⁵⁾. يقول الإمام الغزالي: «كل شيءٍ حسنه وجماله في أن يحضر كماله اللائق به، الممكن له، فإذا كانت جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر»⁽⁶⁾. فتحقق الشعور بالجمال يقتضي تعيين الكمال في الموضوع الجمالي، وبذلك يمكن أن نقول: إن الكمال هو التعيين الحسي للجمال، لكن هذا غير صحيح دوماً؛ لأنه قد يوجد الكمال ولا يوجد الجمال، ولذلك استعين بمفهوم آخر هو الذوق الذي يعد أفضل معايير الكمال وأصحها⁽⁷⁾.

- (1) انظر نهاية هذا البحث ففيه إحالات كثيرة على الكتاب مفصلة.
- (2) انظر: نظرات في كتاب معاني القرآن للفراء لأستاذنا د. إبراهيم عبد الله ص 390-393 (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج 78/جزء 2).
- (3) في فلسفة النقد للدكتور بشير زهدي ص 20
- (4) الهوامل والشوامل للتوحيدي ص 142
- (5) نظرية النقد العربي لأحمد صوفي ص 70
- (6) إحياء علوم الدين للغزالي 9/5 . وهذا القول يظهر الفرق بين مفهوم الجمال عند العرب، ومفهومه عند الغرب الذي حدده بومجارتين حيث قال: «إن الجمال هو الكمال الذي يدرك عن طريق الإحساسات والمشاعر». انظر: علم الجمال والنقد: فلسفة الجمال، بشير زهدي ص 6. فالجمال عند العرب حضور للكمال من غير شرط للإدراك الحسي، والجمال الغربي شرطه الإدراك الحسي، ولا غرابة في ذلك فهم أصحاب نظريات الشك وعدم الإيمان بالغيبيات، ونحن قوم آمننا بالغييب، نفهمه ونتبعه من دون أن ندركه حسياً.
- (7) نظرية النقد العربي لأحمد صوفي ص 71-72، وقد عقدت بحثاً بعنوان «أثر الذوق في تقرير الأحكام النحوية» اجتمعت لدي فيه مادة غزيرة.



محمد خالد الرهاوي

u

إن مفهوم الكمال يتجسد في التماثل المكرور، وهو تكرر وحدات صغرى أو جزئيات متماثلة تتناسب فيما بينها وتتحد لتشكل وحدة كبرى أو المجموع الكلي العام⁽¹⁾ لكل موجود، لغوياً كان أم غير لغوي، والتماثل مبني على أساس التكرار، والتكرار يقتضي التماثل، وأحياناً يقتضي التشابه، وثمة فرق بينهما، فالتماثل ما كان موافقاً للآخر تماماً، والمتشابه ما كان قريباً منه. ولكون الكمال أساس الجمال، والتماثل أساس الكمال، من ثَمَّ فإن التماثل أساس الجمال. ويمكن توضيح جمالية التماثل المكرور بالأمثلة الآتية: تفعيلات العروض مثلاً بتكرارها وانتظامها تعطي جمالية خاصة (o//o///، o//o///، o//o///)، وكذلك الحال بالنسبة للطبيعة، فورقة الشجرة مكونة من عرق رئيسي وعروق فرعية متماثلة، ومن معمل اليخضور الذي يتكون من خلايا متشابهة تماماً، فنكرار العروق وخلايا اليخضور شكل الورقة، والورقة تكرر، والأغصان تكرر، فشكلاً معاً شجرة، والشجرة تكرر حتى صارت حديقة، وللحديقة منظر جمالي.

والحال كذلك بالنسبة للإنسان، فالشعر على رأسه له منظر جمالي ناتج من تكرر شعرات متماثلة، والبصمات على أصابعه لها منظر جمالي ناتج من تماثل مكرور لخطوط ودوائر ومسافات، وهكذا دواليك.

وهذا التماثل المكرور يقوم النحو العربي على أساسه، فالنحو يبحث في الأحكام القياسية المطردة، واطرادها يعني - بلا ريب - تكرارها، وحمل بعضها على بعض، ولذلك قال بعضهم⁽²⁾:

إِنَّمَا النُّحُو قِيَاسٌ يُتَّبَعُ وَبِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُنْتَفَعُ
والقياس حمل شيء على شيء آخر، فالنحو العربي يقوم أصلاً على أساس الكمال الذي يقوم هو نفسه على أساس التماثل المكرور، وبما أن الكمال أساس الجمال، فاطراد الأحكام النحوية وتكرارها إذاً أساس الكمال الذي هو أساس الجمال؛ فالإطار النحوي العام إذاً جمالي جمالي، فالجملة الفعلية تتكون من وحدات متماثلة متكررة:
فعل - فاعل - مفعول به - فضلات، أو فعل ناقص - اسمه - خبره.
أو متشابهة متكررة: فعل - مفعول به - فاعل - فضلات، أو فعل ناقص - خبره - اسمه.

والجملة الاسمية كذلك: مبتدأ - خبر، أو خبر - مبتدأ.

(1) نظرية النقد العربي لأحمد صوفي ص 73

(2) القياس في النحو لمنى الياس ص 9



U _____ نظرية الجمال في النحو العربي مفهوم ومعايير

وعلى هذا توضع التراكيب عموماً وتضبط، وأي خروج عليها لا يكون جميلاً، بل قبيحاً مردوداً؛ لأن الابتعاد عن التماثل يكون سبباً في العيب والنقص، أي يسبب البعد عن الكمال الذي هو أساس الجمال، وهذا يؤكد مرة أخرى أن التماثل هو سبب الكمال، ألا ترى أن النحاة قد استكرهوا قول الفرزدق:

إلى ملكٍ ما أمُّه من محارب أبوه، ولا كانت كليبٌ تصاهره⁽¹⁾
وقوله:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه⁽²⁾
وقول الآخر:

فأصبحت من بعد خط بهجتها كأن قفراً رسومها قلماً⁽³⁾
لما فيها من الثقل وعدم التماثل مع نظام التكرار في الجملة العربية.

إن التماثل المكرور الذي يحقق الكمال الذي هو أساس الجمال في النحو العربي = يتحقق في أمور كثيرة تعد الأسس الجمالية لنظرية الجمال في النحو العربي والتي تقوم كأبي جميل في الوجود على أساس من التماثل أو التشابه المكرور، وأهم تلك الأسس أو المعايير:

أولاً: كثرة الاستعمال:

إن كثرة الاستعمال أو الدوران في الكلام إنما هي تكرر للمتماثل، من ثم فإن ما كثر استعماله واطرد يعد جميلاً، ولذلك كان الشاذ أو النادر أو القليل قبيحاً أو أقل جمالاً من المطرد، وكان سببويه يبني الكثير من الأحكام أو يعللها على أساس كثرة الاستعمال⁽⁴⁾.

ثانياً: الخفة والإيجاز:

فالجميل لا يكون ثقيلًا مستكرهاً، بل خفيفاً سهلاً موجزاً، وما كان خفيفاً سهلاً موجزاً يسهل تكراره واستعماله. أما إن كان ثقيلًا فقبيح مستكره لصعوبة تكراره، ولذلك كان النحاة

(1) أبوه مبتدأ، ما: نافية. أمه: مبتدأ. من محارب: جار ومجرور متعلقان بخبر محذوف. جملة (ما أمه من محارب) خبر

المبتدأ (أبوه)، وجملة (أبوه ما أمه من محارب) في محل جر صفة لملك.

(2) ما: نافية لا عمل لها. مثله: مبتدأ خبره (في الناس). حي: بدل مرفوع. إلا: أداة استثناء. مملكا: مستثنى. أبو أمه: مبتدأ

ومضاف إليه. أبوه: خبر. وجملة (يقاربه) في محل رفع صفة لـ(حي). وترتيب البيت: ما مثله في الناس حي يقاربه أبو أمه أبوه إلا مملكا.

(3) بهجتها: مضاف إليه. قفراً: خبر أصبحت. قلماً: اسم كأن. رسومها: مفعول به للفعل الماضي خط. وجملة (خط) في محل

رفع خبر كأن. وترتيب البيت: فأصبحت قفراً بعد بهجتها كأن قلماً خط رسومها.

(4) انظر: الكتاب لسببويه 2/129، 256، 369، 414، 128/3، 191/4، 192، 481



يبنون كثيراً من الأحكام والعلل على أساس التخلص من التثقل المستكره، بل إن الصرف عموماً أكثر ارتكازه على هذا. والخفة قد تكون:

— في الكلمة الواحدة من خلال التوافق في مخارج الحروف وتسلسلها وعدم اجتماع الحروف المتنافرة أو بعيدة المخرج لتكون سهلة جميلة لا ثقيلة مستكرهه، ولذلك لم يأت وزن (فعل) لنقل الانتقال من الكسر إلى الضم، إضافة إلى أن الكسر أقل الحركات لثقله؛ فهو يحتاج إلى هبوط في المخارج جهة الأسفل، كما أن الضم قليل لاحتياجه إلى جهد كبير لتدوير الفم والشفيتين للنطق به، فهو أصعب حركة في النحو، أما السكون فأكثر الحركات، ولعله الأصل فيها؛ لأنه لا يحتاج إلى جهد كبير، فالفتحة ارتفاع نحو الأعلى، والكسرة انخفاض نحو الأسفل، والضم تدوير للأعلى والأسفل، والسكون ثبوت في المكان، ولا شك أن السكون سابق للحركة على صعيد الوجود كله لا على صعيد النحو فحسب.

— وقد تكون الخفة في التركيب كله، ومن وسائل التخفيف والإيجاز اللجوء إلى الحذف للتخلص من ثقل التراكيب وترهلها، وإبرازها بمظهر جمالي يقبله الذوق دون إخلال بالمعنى المراد، فلا إخلال مع التقصير، ولا ترهل مع التطويل. يقول عبد القاهر: «رب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد»⁽¹⁾ ويقول عن حذف المفعول: «... فإني أتبع ذلك ذكر المفعول به إذا حذف خصوصاً، فإن الحاجة إليه أمس، وهو بما نحن به أخص، واللطائف كأنها فيه أكثر، وما يظهر بسببه من الحسن والرواق أعجب وأظهر»⁽²⁾. ويقول أيضاً: «فما من اسم أو فعل تجده قد حذف، ثم أصيب به موضعه، وحذف في الحال ينبغي أن يحذف فيها، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وأنس من النطق به»⁽³⁾.

إن الحذف الذي يصيب التراكيب أشبه ما يكون بتقليم أغصان شجرة كثيفة متداخلة وإظهارها بمظهر يفوق ما كانت عليه جمالاً وخفة. وهذا الاهتمام بمظهر الشجرة ليس للإخلال بها، بل للمحافظة عليها وعلى ثمارها، فتجميلها إنما هو رعاية لها، وكذلك الحال بالنسبة للنحو، فإنه قد اهتم برواق العبارة وجماليتها للمحافظة على المعاني، والنحاة قد اهتموا بهذا الجانب الجمالي اهتماماً عظيماً حتى اهتموا بالاهتمام بالألفاظ وظاهر القول دون معانيه، وهذا القول — وإن كان صحيحاً في شقه الأول — غير صحيح في شقه الآخر، ذلك أن الاهتمام بالألفاظ وزينتها وتهذيبها إنما هو لخدمة المعاني وإيصالها بطريقة جميلة، لذلك

(1) دلائل الإعجاز للرجاني ص 151

(2) دلائل الإعجاز للرجاني ص 153

(3) دلائل الإعجاز للرجاني ص 152-153، والبرهان 105/3



U _____ نظرية الجمال في النحو العربي مفهوم ومعايير

قال ابن جنّي: فإذا رأيتَ العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسّنوها، وحمّوا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا تَرَيْنَّ أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدّمة منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها، ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه وتركيبه وتقديسه، وإنما المَبغْيُ بذلك منه الاحتياط للموعى عليه وجواره بما يُعَطَّرُ بِشْرِهِ، ولا يَغْرُ جوهره، كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغضُّ منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه⁽¹⁾.

ثالثاً: الإيقاع الموسيقي:

ويتحقق ذلك بأمر كثيرة، منها:

1- الرتبة النحوية حيث يتم تقديم بعض عناصر الجملة أو تأخيرها لغرض موسيقي ليس غير⁽²⁾، فلا أحد يستطيع أن ينكر ما لموسيقا الكلمات من أثر، وكل تقديم أو تأخير - وإن كان لغرض معنوي- لا بد أن يراعي موسيقا الكلمات، وأكثر ما يكون ذلك في السجع، إذ يراد غالباً من التقديم والتأخير فيه تكرار النغمة الموسيقية من خلال تكرار السجع وتواليه، يقول السيرافي: «... وربما اتفق أن يكون السجع في الفاعل فيؤخرونه»⁽³⁾، وقد يأتي في غيره مراعاة لنظم الكلام، يقول ابن الأثير: «والذي عندي فيه أن يستعمل على وجهين: أحدهما الاختصاص، والآخر مراعاة نظم الكلام، وذلك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم، وإذا أخرج المقدم ذهب ذلك الحسن»⁽⁴⁾. وقد ذهب بعضهم⁽⁵⁾ منهم ابن الأثير والزرکشي وبعض الباحثين المعاصرين = إلى أنه في القرآن أيضاً. لكنه في القرآن لا يكون لمجرد التنغيم أو مراعاة الفاصلة بل يحمل معهما معاني أخرى⁽⁶⁾. يقول أحد الباحثين: «وقد يكون التحويل بالتقديم لإحداث النغم الذي له درجة كبيرة وتأثير عجيب على السامع، ويلاحظ ذلك في فواصل القرآن في نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾

(1) الخصائص لابن جنّي 217/1

(2) البرهان للزرکشي 234/3

(3) شرح السيرافي بهامش كتاب سبويه 14/1

(4) المثل السائر لابن الأثير 21/2

(5) انظر: المثل السائر لابن الأثير 21/2-25، والبرهان للزرکشي 234/3، الجملة والوحدة الإسنادية الوظيفية في النحو

العربي للدكتور رابع بو معزة ص 154

(6) انظر: الجملة العربية تأليفها وأقسامها للدكتور فاضل السامرائي ص 49

محمد خالد الرهاوي

u

{الضحى 9/10-9/93}... وهذا التحويل قد جعل النص محملاً بطاقةً تأثيريةً عاليةً جداً في الجانبين المعنوي والصوتي»⁽¹⁾.

2- التكرار اللفظي المتمثل: فالتوكيد اللفظي مثلاً يؤدي إلى تكرار نغمة موسيقية تهدف إلى تقرير المعنى في النفس عن طريق الموسيقى لما لها من تأثير واضح. انظر جمالية الموسيقى الناتجة عن التكرار اللفظي المتمثل في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ {الشرح 5-6}، وفي قول الشاعر⁽²⁾:

إِنِّي وَأَسْطَارٌ سَطْرُنَ سَطْرًا لِقَائِلٍ يَا نَصْرُ نَصْرًا نَصْرًا

والتكرار المتمثل قد يكون بتكرار الصيغ الصرفية المتماثلة أو المتشابهة لا بإعادة الألفاظ نفسها. انظر إلى جمالية تكرار الصيغ الصرفية المتماثلة في قول امرئ القيس⁽³⁾:

مَكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُذْبِرٌ مَعَا كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَلٍ

والميزان الصرفي أو علم الصرف في جانب كبير منه أوزان توزن بها أبنية أسماء وأفعال تتكرر، فالصرف عموماً تماثل مكرور على «فعل» وما يشتق منه.

3- الحذف: إن الحذف إلى جانب ما سبق أن ذكرت آنفاً يضيف على التركيب أحياناً الجمال الموسيقي في نحو الحذف لمراعاة تناسب الفواصل في الآيات القرآنية نحو قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ {الضحى 1-3}. وكذلك الحذف لأجل السجع نحو قولهم: من طابت سريرته حمدت سيرته، أو المحافظة على التصريح أو القوافي نحو قول لبيد⁽⁴⁾:

مَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعُ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ
والتركيب الذي تحذف بعض أجزائه يكون خفيفاً، وما كان خفيفاً كان وقعه الموسيقي أكثر إطباقاً وتأثيراً.

رابعاً: موافقة كلام العرب:

(1) الجملة والوحدة الإسنادية الوظيفية في النحو العربي للدكتور رابع بو معزة ص 154

(2) الكتاب لسبويه 185/2

(3) ديوان امرئ القيس ص 19

(4) ديوان لبيد ص 170

U _____ نظرية الجمال في النحو العربي مفهوم ومعايير

لأن في ذلك تماثلاً مكروراً لما قالته العرب، والخروج عليه ابتعاداً من ذلك التماثل. فالتزام حركات الإعراب وضبط الكلمات، إنما هو تماثل مكرور يؤدي وظيفتين أساسيتين:

1- وظيفة داخلية تتمثل في تحصين المعاني وكشفها ومنع الالتباس بينها، فهي الحارس الأمين عليها والحصن الحصين لها.

2- وظيفة خارجية تتمثل في تزيين الكلمات برسوم على أحرفها لإظهارها بأحسن صورة وأبهى حال. فحال حركات الإعراب كحال الألوان في لوحة فنية جميلة، يعبر من خلالها الفنان عن معانٍ بالألوان، وهذه الألوان تعطيها جماليتها.

وهذا المعيار لم يكن النحاة وحدهم من التزم به وحرص عليه، بل كل من بحث في علوم اللغة، فالنقاد مثلاً كانوا يعدون مراعاة النحو من الجمال الأساسي المسلم به، وينتفي جمال الشعر عندهم عندما تخالف القاعدة النحوية والصرفية، والدليل على ذلك مختاراتهم الشعرية التي خلت من تلك المخالفات، وكذلك فإن جميع الشواهد النقدية والبلاغية التي تدل على منزلة الشاعر واستحسان شعره وتدوقه قد خلت منها أيضاً، والكثير من الشواهد التي تحط من منزلة الشاعر وتستقبح شعره كان المأخذ فيها الوقوع في تلك المخالفة، وكأن الالتزام بالقاعدة النحوية صار عندهم معياراً جمالياً ضمناً يتدخل في الحكم على الشعر استحساناً واستقباحاً وإن لم يصرحوا بذلك دائماً، وكان قبيحاً ومثلباً عظيمة عندهم الخروج قليلاً على تلك القواعد.

خامساً: البناء الهندسي:

في الرتبة النحوية على نحو يجعلها سهلة عذبة لا ثقيلة يمجهها الطبع، ويجفو عنها الذوق السليم. فالتقديم والتأخير أشبه بعمل هندسي يحاول تقديم العبارات وفقاً لنفسية المتكلم والمتلقي وحالهما، ولا شك أن عملاً هندسياً منظماً لشيء ما سيراعي الجمال فيه؛ لأنه لن يكون هندسياً مالم يكن جمالياً، فهندسة التراكيب تعنى بالجمال كثيراً. يقول الجرجاني: «وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما علم أنه لا يكون لو أخر»⁽¹⁾. ويقول أيضاً عن التقديم والتأخير: «هو بابٌ كثيرُ الفوائد جَمُّ المحاسنِ واسعُ التصرفِ بعيدُ الغاية، لا يزالُ يفتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفضي بكَ إلى لطيفةٍ، ولا تزالُ ترى شعراً يروِّقُك مسمَعُه، ويلطِّفُ لديك موقعه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أن راقك ولطفَ عندك أن قدَّم فيه شيءٌ، وحولَ اللفظِ عن مكانٍ إلى مكانٍ»⁽²⁾.

(1) دلائل الإعجاز للجرجاني ص 121

(2) دلائل الإعجاز للجرجاني ص 106



سادساً: مراعاة الحالة النفسية⁽¹⁾:

فكل قاعدة أو حكم نحوي لا بد أن تكون له دلالة نفسية خاصة، وهو ما يعرف عند أصحاب المعاني بمراعاة مقتضى الحال، فقولنا «زيدٌ منطلق» يقال لشخص تختلف حالته النفسية عن شخص آخر يقال له: «منطلق زيد»، وعن يقال له: «انطلق زيد»، أو «ينطلق زيد» أو «زيدٌ ينطلق»، أو يا «زيدُ انطلق» أو «انطلق يا زيد». فكل مثال من هذه الأمثلة له حكم نحوي خاص، ومن ثم فإن له دلالة نفسية خاصة، وقد بنى عبد القاهر نظرية النظم على هذا الأساس، والنحاة كانوا يدركون ذلك أيما إدراك، ومما يدل على ذلك رد المبرد أو غيره على قول الفيلسوف الكندي: إني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون: عبدُ الله قائمٌ، وإنَّ عبدَ الله القائمُ، والمعنى واحدٌ. حيث قال المبرد: بل المعاني مختلفةٌ، فـ«عبدُ الله قائمٌ» إخبارٌ عن قيامه، و«إنَّ عبدَ الله قائمٌ»، جوابٌ عن سؤال سائلٍ، و«إنَّ عبدَ الله لقائمٌ» جوابٌ عن إنكارٍ منكرٍ⁽²⁾.

سابعاً: إصابة المعاني:

فالمتكلم الفصيح يتكلم بما يوافق النحو ولا يخرج عليه، وكلامه يؤدي معاني عدة، فإن كان المتكلم قد قصد تلك المعاني كان كلامه مراعيًا الحال والمقام، وإن لم يكن يقصدها أدى كلامه تلك المعاني، وكان غير مناسب للمقام، فقد يتكلم امرؤ مثلاً بكلام منكر يعلمه السامع، ولذلك لا يعيره اهتماماً كبيراً لمعرفة إياه، فيقول لمن يعلم أن زيدا منطلقٌ: زيدٌ منطلقٌ، وإن كان المقام يفترض أن يقول: زيدٌ المنطلق أو المنطلق زيد، والعكس كذلك.

إن الجمال عند النحاة ولاسيما أهل الذوق الرفيع يعود إلى معاني النحو وأحكامه. يقول الجرجاني: «فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحةٍ نظمٍ أو فساده، أو وُصف بمزيةٍ وفضلٍ فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحةٍ وذلك الفسادِ وتلك المزيةٍ وذلك الفضلِ إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه»⁽³⁾. ثم يؤكد مرة أخرى أن الجمال إنما يعود إلى معاني النحو وأحكامه، يقول معلقاً على أبيات البحتري:

بَلَوْنَا ضَرَانِبَ مَنْ قَدْ نَرَى	فَمَا إِنْ رَأَيْتَا لِفَتْحِ ضَرِيْبَا
هُوَ الْمَرْءُ أَبَدَتْ لَهُ الْحَادِثَاتُ	عَزَمًا وَشَيْكًا وَرَأْيَا صَلِيْبَا
تَتَقَلُّ فِي خُلُقِي سُؤْدُودٌ	سَمَاحًا مُرَجَّيْ وَبَأْسًا مَهْيَبَا

(1) وقد عقدت بحثاً خاصاً بعنوان «الدلالات النفسية للأحكام النحوية» اجتمعت لدي فيه مادة غزيرة.

(2) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للزويني ص 28-29

(3) دلائل الإعجاز للجرجاني ص 83

U نظرية الجمال في النحو العربي مفهوم ومعايير

فكالسيف إن جئتُه صارخاً وكالبحر إن جئتُه مستثيباً
:«فإذا رأيتها قد راقتك، وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازاً في نفسك، فعُدْ فانظر في السبب، واستقص في النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدّم وأخر، وعرف ونكر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو، فأصاب في ذلك كله، ثم لطف موضع صوابه، وأتى ما أتى يُوجب الفضيلة. أفلا ترى أن أول شيء يروك منها قوله: «هو المرء أبدت له الحادثات»، ثم قوله: «تقل في خلقي سُودد»، بتكثير السُودد وإضافة الخلقين إليه، ثم قوله: «فكالسيف» وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ؛ لأنّ المعنى: لا محالة فهو كالسيف، ثم تكريره الكاف في قوله: «وكالبحر»، ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطاً جوابه فيه، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله «صارخاً» هناك «ومستثيباً» هاهنا. لا ترى حسناً تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عددت أو ما هو في حكم ما عددت فأعرف ذلك. وإن أردت أظهر أمراً في هذا المعنى فانظر إلى قول إبراهيم بن العباس:

فلو إذ نبا دهرٌ وأنكر صاحبٌ وسلط أعداءٌ وغاب نصيرٌ
تكون عن الأهواز داري بنجوة ولكن مقادير جرت وأمورٌ
وإني لأرجو بعد هذا محمداً لأفضل ما يرزجى أخ ووزيرٌ
فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة ومن الحُسن والحلاوة، ثم تتفقذ السبب ... لا ترى في البيتين الأولين شيئاً غير الذي عددته لك، تجعله حسناً في النظم، وكله من معاني النحو كما ترى، وهكذا السبيل أبداً في كل حُسن ومزية رأيتهما قد نسبا إلى النظم وفضلٍ وشرفٍ أحيلَ فيهما عليه»⁽¹⁾.

وقد استطرده الجرجاني في بيان إسهام بعض الحروف في جمال الحال وحسنها. يقول: «ومما يجيء بالواو في الأكثر الأشيع، ثم يأتي في مواضع بغير الواو، فيلطف مكانه، ويدل على البلاغة = الجملة قد دخلها «ليس»، تقول: أتاني وليس عليه ثوب، ورأيتُه وليس معه غيره، فهذا هو المعروف المستعمل، ثم قد جاء بغير الواو، فكان من الحُسن على ما ترى»، وهو قول الأعرابي:

لنا فتى وحبنا الأفتاء تعرفه الأرسان والذلاء
إذا جرى في كفه الرشاء خلّى القلب ليس فيه الماء

(1) دلائل الإعجاز للجرجاني ص 85-86



ومما ينبغي أن يُراعى في هذا الباب أنك ترى الجملة قد جاءت حالاً بغير واو، ويحسن ذلك، ثم تنظر فترى ذلك إنما حسن من أجل حرف دخل عليها، مثاله قول الفرزدق:

فَقُلْتُ : عَسَى أَنْ تُبْصِرِنِي كَأَنَّمَا
بَنِي حَوَالِي الْأَسْوَدُ الْحَوَارِدُ
قوله «كأنما بني» إلى آخره في موضع الحال من غير شبهة، ولو أنك تركت «كأن»، فقلت: عسى أن تبصريني بني حوالي كالأسود = رأيت لا يحسن حسنه الأول، ورأيت الكلام يقتضي الواو كقولك: عسى أن تبصريني وبني حوالي كالأسود الحواري. وشبهة بهذا أنك ترى الجملة قد جاءت حالاً بعقب مُفرد، فلفظ مكانها، ولو أنك أردت أن تجعلها حالاً من غير أن يتقدمها ذلك المفرد لم يحسن، مثال ذلك قول ابن الرومي:

وَاللَّهِ يُبْقِيكَ لَنَا سَالِمًا
بُرْدَاكَ تَجِيلٌ وَتَعْظِيمٌ⁽¹⁾.

وحق ما قال الجرجاني، إذ إن المرء يشعر بنشوة كبيرة لا تعدلها نشوة عندما يدرك جمال التركيب وأسرار كلماته والمعاني الدقيقة التي يحملها، فقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ {الروم / 41} يثير في أذهاننا أسئلة كثيرة من نحو: لماذا استعمل المتكلم «ظهر» دون مرادفات أخرى لها من نحو برز، علا، بدأ، انكشف وغير ذلك؟ وما هذا التكتيف الكبير للمعاني في كلمات قليلة.

لقد جاءت كلمة «ظهر» دون غيرها للدلالة على العموم والتغلب على الصلاح، فلفظ ظهر يدل على التفوق والنصر بدليل قوله تعالى: ﴿أَيُّدُنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ {الصف 14}، واستعمال تلك المرادفات لا يؤدي هذين المعنيين، بل معنى العموم أو البروز دون التغلب.

إننا لو أخذنا نصاً أدبياً عربياً ما، قرأنا كان أو شعراً، وأجرينا عليه دراسات وفق نظريات غربية متعددة كالبنوية والتفكيكية والسيمائية و..... ثم درسناه وفق نظرية النظم = لوجدنا أن تلك المناهج غريبة كل الغرابة على لغتنا، وكانت سبباً رئيساً في إفساد النص وتفكيكه إلى وحدات ميتة لا رواء فيها ولا ماء، ولوجدنا المتعة الحق في نظرية النظم التي تكشف أسرار ذكر الكلمات وحذفها وتقديمها وتأخيرها وتعريفها وتكبيرها وما إلى ذلك.

إن مما يدل على أن النحاة كان يسعون إلى الجمال ويضعونه نصب أعينهم كثرة عبارات الجمال والقبح⁽²⁾ عندهم، والجيد⁽³⁾ والرديء، والحسن والسقيم، والجائز والفاقد، وغير ذلك

(1) دلائل الإعجاز للجرجاني ص 210-212

(2) الكتاب لسبويه 21/1 و 54 و 76 و 99 و 101 و 106 و 107 و 125 و 126 و 132 و 136 و 142 و 144 وغير ذلك كثير.

(3) الكتاب لسبويه 152/1 و 155 و 158 و 161 و 170 و 181 و 194 و 201 و 226 و 228 و 231 و 275 و 347 و 377 وغير ذلك كثير.

U _____ نظرية الجمال في النحو العربي مفهوم ومعايير

من مصطلحات نقدية جمالية وذوقية لم يخرج عنها قديما أصحاب الذوق من نقادنا الكبار إلا قليلا، فهذه العبارات تدل على أحكام جمالية متعددة شكلت نظرية جمالية متكاملة، وإن لم يستطع أحد الكشف عنها فيما أعلم.

فإن قيل: إن هذه المصطلحات إنما استعملها النحاة للدلالة على ما كان جائزا أو غير جائز في زمن لم تتضح فيه مصطلحات هذا العلم، قلت: إن استعمال الشيء يدل بالضرورة على الإحساس به، وإن مصطلحات الجمال والقبح التي استعملوها لدليل على أنهم كانوا يبحثون عنه لدرجة أنهم لم يتمكنوا من التخلص منها، ألا ترى أن الشعراء أصحاب المهن لم يستطيعوا التخلص من مهنهم في أشعارهم، والنحاة عملهم ضبط ما يكشف عن هدف اللغة الأساسي الذي هو إيصال المعاني بطريقة جمالية.

A 297



المصادر والمراجع

- 1- إحياء علوم الدين: الغزالي، دار الوعي العربي، حلب، ط1، د.ت.
- 2- الإيضاح في علوم البلاغة: القزويني، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.
- 4- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، د.ط.ت.
- 5- الجملة والوحدة الإسنادية الوظيفية في النحو العربي: د. رباح بو معزة، دار ومؤسسة رسلان، دمشق، 2008م.
- 6- الجملة العربية تأليفها وأقسامها: د. فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، ط1، 2002م.
- 7- الخصائص: ابن جنبي، تح: محمد علي النجار، دار الهدى، ط2، د.ت.
- 8- ديوان امرئ القيس: تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، د.ط.ت.
- 9- ديوان لبيد: تح: د. إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1962م.
- 10- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، ط5، 2004م.
- 11- شرح السيرافي بهامش الكتاب، مطبعة بولاق.
- 12- في فلسفة النقد: فلسفة الجمال: د. بشير زهدي، جامعة دمشق، 1982م.
- 13- القياس في النحو: د. منى الياس، دار الفكر، دمشق، ط1، 1985م.
- 14- الكتاب: سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، عالم الكتب، بيروت، د.ط.ت.
- 15- المثل السائر: ابن الأثير، تح: محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، ط1، 1998م.
- 16- نظرات في كتاب معاني القرآن للفراء: د. إبراهيم عبد الله ص 390-393 (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج 78/جزء2).
- 17- نظرية النقد العربي في القرنين الثالث والرابع الهجريين، أحمد صوفي، رسالة ماجستير، جامعة حلب، 2009م.
- 18- الهوامل والشوامل: أبو حيان التوحيدي، تح: أحمد أمين، والسيد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951م.

/ /



هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

www.alukah.net